قناع الموت

تَهَلَّلت أسارير (شادن)، وهي تتمايل بخصرها المياس في ثَّوْبِ العُرسِ الأبيض، برقصة رومانسية حالمة مع عريسها (رامز)، على لحن كلاسيكي هادئ، وفي أعقابها عزفت الفرقة الموسيقية لحن الزفاف، لتتأبَّط ذراع زوجها الوسيم بحلته التوكسيدو ذي البابيون الأنيقة، قاطعين الممر الطويل لقاعة الأفراح في زفة منقطعة النظير، حتى استقلا سيارة مزدانة تَحُفُّهُما سعادة الدنيا..

وبمضي سُوَيْعة.. كشرت الطبيعة عن أنيابها، فتلبدت السماء بغيوم رمادية كثيفة أضفت على الْجَوِّ البديع طابع الكأبة، وسطع البرق في قلب السَّحاب تلاه هزيم الرعد، وسرعان ما هطلت الأمطار بغزارة، لتدفع الغالبية العظمى من الناس للبقاء في بيوتهم، وكادت الشوارع تخلو تقريبًا من حركة السيارات والمارة تحت السيول المنهمرة..

ولم يُبالي بموجة الطقس السيىء شخصٌ طويل القامة، متين البنيان، يرتدي معطفًا قصيرًا من النايلون المقاوم للماء، وبنطالًا جينز أسود داكن، عبر الطريق واتجه مباشرة صوب عوامة نيلية، تسلل إلى داخلها بخفة الفهد, ثم تَقَفَّزَ بقفازين جلديين سوداوين، وثبت فوق وجهه قناع مطاطي مخيف، لسفاح مجزرة منشار تكساس، الأشهر في تاريخ أمريكا(إد جين)، ثم استل من جراب معلق بساقه خنجرًا مفلطحًا ماضيًا، وانتقى من أثاث العوامة مكانًا، توارى خلفه يَسْترق السمْع، ويُمعن النظر، ويترقب بهدوء وثقة..

لم يَدُم مكوثه طويلًا، حتى استنفرت حواسه "تكة" معدنية مصاحبة لتحرك مزلاج الباب، وبحذرٍ شديدٍ اشْرَأَبَّ بعنقه، ليرمق العروسان، وهما يدلفان للعوامة، وبعد بُرْهةٍ قَصيرةٍ ظهرت (شادن)، فحملق المقنع بنظرة شهوانية في تضاريس قوامها المثير الصارخ بأنوثة طاغية، والمغلف بقميص نوم وردي قصير يبرز مفاتنها، دخلت الحمام، وفتحت صنبور البانيو، ثم راحت تطالع صورة وجهها المليح المنعكس في المرآة، وتتحسس بشرة وجنتيها الناعمتين، وهى تُسبل جفنيها في نشوة، فتحت عينيها ببطء لتتلاشى ابتسامتها، وتحل محلها نظرة هلع، حينما بدت لها صورة المقنع المتشح بالسواد، واضحة بجلاء على سطح المرآة، يقف وراءها مباشرة!.

ألجمت المفاجأة لسانها، فاختنقت الكلمات في حلقها، لذا لم تستطع أن تنبس ببنت شفة، وارْتَعدَ جلدها، وهي تستدير ببطء، وترفع رأسها لتواجهه، كان شاهرًا خنجره ذا النصل الحاد أمام وجهها في صرامة مخيفة، واضعًا إصبعه على فَمه، في إشارة تهديد ووعيد جلية بأن تلتزم الصمت، تيبست عضلاتها، وشعرت أن ساقيها قد عجزتا عن حملها، فسقطت أرضًا، ليتمكن المقنع بواسطة شريط لاصق من إحكام وَثَاقَ معصميها، وتكميم فمها..

تجمدت عيناها في محجريهما، وشعرت بالعرق البارد يتصبب منها، وهو يرفع خنجره ويمرر نصله على خديها بهدوء مثير، وفجأة راح في وحشية يمزق وجهها بضربات خاطفة متلاحقة بطرف النصل المشرشر، فتفجرت دِمَاؤُهَا القرمزية الدافئة، لتغرق قسمات ملامحها المطموسة، فأخذت تهز رأسها، وهي تتلوى ألمًا وعذابًا، وتصدر من خلف الكمامة همهمات هيستيرية مكتومة..

تحت وطأة لوعتها التي جعلتها كالثكلى، انفكت عقدة جسدها، فاعتدلت بصعوبة وتراجعت بحركة حادة، وكل خلجة في جسدها تنتفض بالخوف، فبادلها غريمها بابتسامة مقيتة، سرعان ما اتسعت لتصبح قَهْقَهة شامتة، وهو يهجم عليها محاولًا طعنها، بغريزة البقاء تنحت جانبًا، فأطلق المقنع زمجرة غاضبة، وخنجرة ينغرس في مرآة الحمام، فهشمها ليهوي حطامها ويرتطم بالأرضية في رنين مزعج، تردد صداه طويلًا..

اندفعت نحو باب الحمام، فانزلقت قدماها على السيراميك الأملس، وسقطت لتنغرز شظايا الزجاج الحادة بأرجاء جسمها، حاولت التشبث بحافة البانيو المستدير لتعتدل، ولكن جسدها المدجج بالآلام خذلها، فاغرورقت عيناها بدموع اليأس المريرة..

اندفع نحوها رافعًا خنجره لأعلى، فكاد قلبها من فرط فزّعها أن ينخلع من بين ضلوعها، مع سريان قشعريرة هائلة في جلدها، وخصمها يهوي بالنصل الحاد على بطنها، فرفعت كفَّيْها في محاولة جادة للذود عن حياتها، لتشعر بآلام حادة تنتشر في ذراعيها، فأجهشت ببكاءٍ حار، امتزج بنحيبها المذعور، وأصدر جسدها تشنجات عصبية، فخرج من حلقها حشرجة عجيبة، وسيطر الرعب على كيانها كله، لذا لم تقاوم هذه المرة، فسلمت واستسلمت لمصيرها المحتوم..

ضاقت حدقتاه، ليَبدُو علي وجهه آثار الاستمتاع بانهيارها، فحدجها بنظرة قاتل سادي يتلذذ بتعذيب ضحاياه، وبرقت عيناه في جنونٍ حاز وحشية الدنيا، وببرودٍ عجيب، أخذ نصل خنجره يغوص في صدرها الأيسر، فشقه كما لو أنه جراحٌ بريطاني يقوم بعملية قلب مفتوح بدون

عقاقير مخدرة، لتجحظ عيناها في ألم ورعبٍ هائلين، مع بروز قلبها المَخبوء من تجويف صدرها، وهو ينبض بضربات سريعة متلاحقة، وبمعدلات فائقة غير مسبوقة، وبلا اكْتِراث مد يده عبر فرجة صدرها، وانتزع قلبها انتزاعًا من بين ضلوعها، أخذًا بالأوردة والشرايين المتصلة به، فتمزقت ونزفت دماؤها بشكل بشع، لينتفض جسدها انتفاضة الموت!

وبعيونٍ زائغة من خلف غشاوة ضبابية، تَرَاءى لها بلمحة خاطفة وجه جلادها، بعد أن نزع قناعه، فعرفته قبل أن تصعد روحها إلى بارئها، وتفارق جثتها التي اندفعت منها الدماء، لتصنع حولها بحيرة حمراء قانية، فحملق القاتل بنظرة ماجنة متشفية في قلبها القابع بين كفيه والدم يتقطر منه بغزارة، فقضم جزءً منه بأسنانه ولاَكَهُ بفمه، قبل بصقه في ازْدراء..

في هذه الأثناء كان (رامز) يستمع لأهزوجة صاخبة، وهو يحتسي الخمر، وبدأ القلق يتسلل إلى كوامن نفسه، فقام من مجلسه وهو يترنح من فرط سكره، جال ببصره في أديم العوامة الفسيحة بحثًا عن زوجته، هرع نحو الحمام ليرتد إلى الخلف مصعوقًا، وتبخر أثر الخمر من رأسه، وهو يطالع جثتها المسجاة المشوهة، والمغمورة بالدماء على نحو مريع.

وفجأة انقطعت الكهرباء، فاندهش وهو يطالع الأضواء الواضحة في العوامات المجاورة، وسطع البرق، واجْتَازَ وميضه النافذة، لينعكس على تمثالٍ ثقيل ارتفع عاليًا، وهوى بضربة فنية على مؤخرة رأسه،

جعلت جسمه يدور حول نفسه قبل أن يسقط أرضًا، ويذهب في غياهب غَيبوبة عميقة..

ولم يدرِ كم ظل فاقدًا للوعي، ولكن عندما أفاق شعر بصداع رهيب يكتنف رأسه، ووجد يداه وقدماه مشدودتان في إحكام إلى قضيب سكة حديد بحبال غليظة مَضْفورة، وعلى قيد خطوة منه يقف الشبح يوليه ظهره، كانت ليلة من ليالي محاق القمر قد أرخى فيها الظلام والبرد القارس سدولهما، وساد الهدوء جميع الأنحاء، وبدأت الأمطار تخف تدريجيًا، فأخذ (رامز)يتبين موقعه الجديد ليجدها منطقة مقفرة موحشة، فهتف بغضب عارم:

- من تكون أيها الوحش المَسْعُورٌ؟!

التفت المقنع ببطء، فشحب وجه (رامز) حتى حاكى وجوه الموتى، وفغر فاهُ قبل أن يهتف في حنق:

- (أدهم) أخي!.. أأَنتَ خلف كل هذه الكوارث؟!

التمعت عينا(أدهم)، حتى بدا حرفيًا كالمُعتل، وهو يصرخ ساخطًا:

- أجَلْ أنا.. وسأقتلك لأرثك بعد استحواذك على تركة أبانا.

ازدرد لعابه، ثم أردف كالثور الهائج:

- الأدهى أنك من بين كل نساء الأرض تزوجت حبيبتي(شادن).

أخذ (رامز) يصارع قيوده، وهو يبتلع قطرة ريق فرت هاربة إلى صعيد حلقه الجاف، وأراد أن يصرخ ولكن صوته خذله فخرج متحشرجًا، وهو يتمتم في استعطاف:

- ولكن الْقَاتِلُ لا يَرِثُ المقتول!

قاطعه أخوه وهو يهوى على وجهه بصفعة هادرة، جلجل صداها في الليل البهيم كألف صفعة، وجثا على ركبتيه, حتى كادت أنفاسه الحارة تلفح وجهه، وصرخ بغِّل:

- يا لك من وغد..

بدد سكون الليل صافرة مدوية لقطارٍ قادم، فالتهبت أعصاب (رامز) وهو يحاول أن يحل وثاقه، ولكن هيهات.. فأخوه قيده بإحكام مطلق، ألجمه العرق إلجامًا، فصرخ بكل ما يموج به صدره من انفعالات ذُعر جارفة، وهو على شفا الانهيار التام:

- الرحمة يا أخي.. أرجوك حل وثاقي.. وأعاهدك بأنني سأعوضك عن كل لحظة شقاء عانيت فيها.

جاوبته تصفيقات (أدهم)، وهو يثِب في الهواء كطفل مبتهج بلعبة جديدة وضاقت حدقتاه، وهو يغمغم في صرامة ماجنة:

- سبق السيفُ العَذَلَ، وأوشك القطار السريع أن يفرمك أسفل عجلاته بلا هَوادة.

قالها ثم راح يهذي مثل الأَبْلَه، والزبد يسيل من بين شِدْقُه على ذقنه في منظر مقزز، ليَبدُو وكأنه وحش كاسر لم تعد في أعماقه مكان لبذرة شفقة أو ذرة رحمة، والقطار يدنو مزلزلًا الأرض من تحته، وصفيره يسبقه بضوضاء هادرة كادت شدتها تصمّ الآذان، وأخذ (رامز) يتضرع لأخيه، ولكن دون جدوى، وعندما أصبح القطار على مرمى البصر، اتسعت عيناه عن آخرهما واحتقن وجهه ليتدفق الأدرينالين بقوة في عروقه، وتنقبض عضلاته ثم تنبسط، ليجد معصمه قد تحرر، وبلا تردد قبض على ساق (أدهم) ككلابة من فولاذ، وهو يصرخ بملء فَاهُ بسخط ثائر:

- إذا لم يكن من الموت بُدٌّ، فلنمت سويًا أيها البائس.

أطلق(أدهم) صرخة رعب هائلة، وهو يحاول بكل ما أوتي من عزيمة تخليص قدمه، ولكن القطار المندفع بسرعته القصوى لم يمهله للفرار من القضاء النافد، فمزقهما إرْبًا وسحق عظامهما سحقًا، لتتطاير أشلاء اللحم المفري، في مشهد فظيع، يعجز القلم عن وصف مدى بشاعته!.

******

ولج خبير المعمل الجنائي إلى مكتب مفتش مباحث العاصمة، وهو يحمل في يده ظرف أبيض، فاستقبله المفتش واختطف منه الظرف، وفضه بلا رَويّة، وهو يتمتم في تفاؤل مفعم بالحذر:

ــ أتعشم أن يأتي تقرير الطب الشرعي بما يمحو غموض الحادثة البشعة التي أودت بحياة الملياردير(رامز رسلان).

أومأ له الخبير برأسه إيجابًا، وهو يتفرس في انطباعات وجهه حيال ما يقرأه، فبهت عندما ارتد المفتش برأسه للخلف مصعوقًا، وهو يغمغم في دهشة:

- مستحيل!..فالتقرير يفيد بكون الجثتين لـ (رامز) و(أدهم رسلان) ولكن تحليل الحمض النووي يؤكد بأنهما ليسوا إخوة!.

طرق جندي الحراسة الباب فأَجازَ له المفتش بالدخول، فدلف ثم أدى التحية العسكرية، وهو يقول بلهجة آلية:

- حرم المرحوم (رسلان السيوفي) تريد مقابلتك يا افندم.

أشار له المفتش بلهفة قائلًا:

- دعها تتفضل فورًا.

انصرف الخبير وفي إثره الجندي لتنفيذ الأَمْر، وما هي إلا ثوانٍ حتى دلفت سيدة مسنة، احمرت عيناها من الدموع التي ذرفتها، فأشار إليها المفتش بالجلوس، وهو يقول بلهجة مهذبة:

- مرحبًا بكِ يا سيدتي.. كلى آذان مُصْغِية.

جلست، ثم قالت بأسى من قلب حزنها الدفين:

- أهلًا وسهلًا.. لقد جئت لكي أبوح بسر ناءَ به كتفاي، وآن الأوان لأعلنه بعد فاجعتي بفراق الزوج والولد.

ازدردت لعابها في صعوبة لتشعر بغصة مريرة في حلقها، وهى تضيف بصوت مُتهدِّج:

- منذ عدة سنوات، ابتلاني الله بورم خبيث في الرحم فاستأصله الأطباء، لأصبح امرأه عقيم.. ولأن زوجي الراحل كان يشتهى الأولاد، حتى يمنع أشقاءه من ميراثه.. تفتق ذهنه على حيلة خبيثة.. فتمكن بسحر أمواله من الحصول على طفلين نسبهم لنفسه من حضانة مشفى خاص.

تضرج وجه المفتش بعلامات الذهول السافِر، ثم سرعان ما مط شفتيه وندت من فاه ابتسامة هزلية، وهو يتمتم بتهكّم لاذع:

- حقاً تقدرون وتضحك الأقدار!.

قال عبارته ثم ران على جنبات الحجرة صمت مهيب، لم يبدده سوى صوت صافرة قطار قادم من بعيد.

تمت

بقلم / راضي عبد المقصود السيد